منارات
manarat
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
فخري كريم
رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"
www.almadasupplements.com
العدد (6071) السنة الثالثةوالعشرون - الأربعاء (21) كانون الثاني 2026

المعمارية والروائية
سعاد العامري

سعاد العامري.. كناية الحصاة التي تسند زير ماء

محمد هديب

منذ ٢٠٠٤، العام الذي أصدرت فيه الكاتبة والمعمارية الفلسطينية سعاد العامري أُولى أعمالها "شارون وحماتي"، وهي "مهووسة"، كما تصف، بالقضية الشخصية، وبالتاريخ غير الرسمي الذي يتشكل من قصص الناس.

تقول العامري، في منتدى "حديث الألف" الشهري في "مكتبة ألف"، التابعة لمؤسّسة "فضَاءات" الذي استضافها مسَاء الأربعاء الماضي: "نحن نخجل من أن نحكي قصتنا". وعملها السيري الأول، الذي تُرجم إلى عشرين لغة، كان المدماك الأساس لهذه المرافعة التي تُفسح المجال لمن لا صوت لهم، أو للذين أصواتُهم خافتة، أن يحكوا عن ذواتهم الصغيرة وحياتهم المهددة وخساراتهم وأحلامهم.

كأنما في الكناية التي تنتمي إليها تدافع الكاتبة عن الحصاة وهي تسند زير الماء. ففي السردية الكبرى تفاصيل وبطاقات هوية، وأوراق شخصية، وذكريات ألبوم العائلة.

وهو ما قالت إنه يقع الآن بغزّة التي لا يمكن وصفها بأنّها تشهد حرباً بين جيشين، إنما هو احتلال يقصف المدنيين. فإذا كانت الجيوش ذات تاريخ رسمي، فإن الكتابة عن وجود الناس تحت هذه الحرب لا تقل بسالة، وبالأخص لأنها تدور في ظلال الطرف الأعزل.

واحدة من اللمعات التي ستفضي إلى رواية "غولدا نامت هنا" هي الطاولة وقد نجت مما سرقه المستعمر الصهيوني عام النكبة ١٩٤٨، وعاشت مع العائلة في عمّان حيث عاشت العامري، سليلة الأب اليافاوي والأم الدمشقية في فضائها الشامي المحيط بفلسطين المحتلة منذ أبصرت النور في دمشق عام ١٩٥١، ومنها جابت بلاداً كثيرة لتحصيل علمها في مجال العمارة.

هذه الطاولة مضروبة بالرصاص، ولدى الجلوس إليها ومن حول خشبها القديم الصامت، لمعت فكرة الرواية الصادرة عام ٢٠١٤، مستندة إلى أن أهل الكاتبة لم يشركوها ذاكرة خروجهم من مدينتهم يافا في النكبة، لأنهم "خجولون من الصدمة ويريدون في وعيهم ولاوعيهم أن يعيش أولادهم عيشة طبيعية».

ولأن الفلسطيني ليس لديه فترة نقاهة من كارثة إلى أخرى، كان امتحان الكتابة من خلال تحويل الحكي إلى نص كتابي، مهمة نشأت مصادفةً إبان الانتفاضة الثانية، انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠ – ٢٠٠٥).

هؤلاء مناضلون لم يقع تأطيرهم في التاريخ الرسمي، ليس لأنهم خاملو الشأن، بل لأن تراثاً من قدسية القضية يجعل الجزء قابلاً للتضحية بشأنه الجزئي لفائدة الكل ذي العناوين الكبيرة.

لا مفاضلات

والعامري، على كل حال، لا تقيم مفاضلات بين أشكال النضال ولا روايات جديدة مقابل أُخرى قديمة. قد تساعدنا على سبيل المثال لوحة على جدار، للفنان الرائد إسماعيل شمّوط وهي تحمل الجماعة الفلسطينية إلى شتاتها، وتحتها كرسي صدئ للفنانة منى حاطوم. كلاهما من فلسطين ويختار زاوية النظر إلى جبل بعيد أو جانباً منسياً على الشرفة.

تميل سعاد العامري إلى النوع الثاني، وتقول رداً على سؤال للكاتبة سمر يزبك، مديرة المنتدى، إن معنى النضال اليومي قد يُغفل صورة للفلسطيني هامشية وهي ليست كذلك، كأن يَفكر في القدوم من الخليل إلى رام الله ويعبر مجموعة الحواجز المذلّة.

وعليه، تطرح السؤال: ما الاحتلال سوى أنه يمنعنا من حياة يومية طبيعية، ويجهد في الآن ذاته بأن يخلق احتلالاً في رأس الفرد الذي مع الأيام سيوطّن نفسه بأن لا داعيَ للذهاب إلى رام الله، حيث استقرت في دماغه أربعة حواجز. أصبحت الحواجز تحتل مواقعها في الدماغ، فيصبح زاهداً في الحركة الحرّة وأسيراً غير معلنٍ للفضاء الذي ترسمه البنادق ونقاط التفتيش.

بدءاً من "شارون وحماتي"، أصبحت المهندسة المعمارية مصادفةً كاتبة. وهي تقول "مصادفةً" لأنها بالفعل كتبت إبان الانتفاضة يوميات أرسلتها في إيميلات إلى أصدقاء تتحدث بلغتها الفكاهية عن احتلالي شارون (أرييل شارون رئيس وزراء الاحتلال وقتذاك) و"احتلال" داخل المنزل حيث حماتها وقد كانت في الثانية والتسعين من عمرها، ومن بين الأصدقاء إيطالية هي من تولّت إرسال اليوميات إلى ناشر.

هواجس أُولى

وفي أولى التجارب التي تخرج للعلن تبرز معها هواجسها، فقد قالت إن خشيتها الأشد كانت من المتلقّي الفلسطيني الذي يعرف غالبية ما يدور النص حوله، فهُم الجيران والأهل وزملاء العمل.

وهذا النوع من الهواجس غير منطقي، ولكن لا مفرّ من وقوعه، لأن الكتابة حين تنهل من يوميات الشارع والمنزل لا تكتفي بأن تكون لسان حال، بما هو محل تقدير صحافي أو توثيقي. إنه هنا يعيد صوغ المألوف ويفرك بالليمون قطعة النحاس التي علاها الصدأ، كأنه يكتبها بصدئها ولمعتها الجديدة.

للكاتبة خمسة أعمال سردية هي على التوالي: "شارون وحماتي" (٢٠٠٤)، و"مراد مراد" (٢٠١١)، و"غولدا نامت هنا" (٢٠١٤)، و"دمشقي" (٢٠١٩)، و"بدلة إنكليزية وبقرة يهودية" (٢٠٢٢). كتبت جميعها باللغة الإنكليزية، بينما كُتبها المعمارية كانت بالعربية، ومنها "البلاط التقليدي في فلسطين"، و"عمارة قرى الكراسي"، و"زلزال في بيسان»َ.

سيكون العام ١٩٩١ في رام الله موعد تأسيس مركز "رواق" للحفاظ على التراث المعماري الشعبي الفلسطيني، بعد سنوات طويلة من الدراسة والخبرات التي تلت انخراطها في الدراسة بـ"الجامعة الأميركية" في بيروت، وجامعة ميشيغان، وجامعة أدنبرة في إسكتلندا.

العمارة والرواية

وبين حقلَي العمارة والرواية، لا بد أن تظهر التشابكات والخلفيات التي تقف وراء تشييد العمران والسرد. إلا أنه بوضوح فاعل تستثمر المعمارية انشغالها بالمدن الفلسطينية والبيوت.

ولنا أن نتعرف إلى البيوت المقدسية فائقة الجمال التي طرد سكانها إلى شتات بعيد وشتات أشد قهراً نحو القدس القديمة، حيث المسافة بين أصحاب البيوت ومحتليها الغرباء تُرى بالعين المجرّدة.

وستقودنا الرواية إلى مسار واحدة من نساء القدس، وهي هدى الإمام التي تزور بيت عائلتها أيام سبت متفرقة وتتعرض للسجن يوماً ثم يُخلى سبيلها، وتعاود الزيارة وإزعاج اللصوص المتحضّرين.

كما تحدثت عن غابي برامكي (١٩٢٩ – ٢٠١٢) وقد كان رئيس "جامعة بير زيت" حين سيدخل روايتها بوصفه الفلسطيني صاحب البيت الذي سيتحول إلى "متحف للتعايش"، ولدى تدشين المتحف يطلبون منه تذكرة. هذه التذكرة هي التي ستؤدي إلى متحف كان ذات زمن يضم هنا صالون الضيوف وهناك غرفة نومه.

المعمارية الكاتبة توصلنا إلى رواية "دمشقي" وكتبتها عن دمشق وقد حفظت تفاصيلها بوصفها "المكان الآمن" الذي تتذكره في طفولتها، في بيت جدها لجهة الأم الدمشقية، البيت التقليدي والمشير إلى الحال الميسورة، ثم انطلاقاً منه إلى الفضاء العام للمدينة المليئة بالخيرات كما رأتها، قبل أن تنقلب الحال بعد ٢٠١١، ويصبح السوري لاجئاً، بهوية مختزلة ظالمة أرادت من روايتها أن تواجهها وتكتب عن مدينتها التي تعرف.

أُمّ الغريب

أمّا الرواية التي قالت إنها بذلت فيها الجهد الأكبر فهي الأخيرة "بدلة إنكليزية وبقرة يهودية"، لأنها لم تعتمد فيها على قصص متفرّقة، بل أنشأت حجماً روائياً أدارت فيه الشخوص والمصائر في مدينتها الأم يافا، وقد وجدت صعوبة في الكتابة عنها على غير ما كتبَته عن دمشق، لأنها في يافا شعرت بالغربة: العبرية مسيطرة، والعرب أقلية.

إلا أن قصة الحب محور الرواية بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥١، تفتح بر المدينة وساحلها على المدينة الأكثر غنى وقد كانت تسمى "أم الغريب"، وهي بالتالي لا تنتج عائلات أرستقراطية كالمدن المغلقة مثل الخليل ونابلس، بل جمعت خليطاً من البشر من فلسطين وجوارها العربي والمتوسطي ومن الأجانب، كما شهدت المدينة موجة ترييف بعد لجوء غالبية السكان المدنيين إلى الشتات.

وهي في ذلك المدينة التي تحملها الرواية نموذجاً للمكان الفلسطيني العامر ببرتقاله وصناعته وسكته الحديدية ومسارحه ودور السينما ومكتباتها وصحافتها، قبل أن يسرقها المشروع الصهيوني مدعياً أنه أقام دولته في مكان فارغ.

تواصل سعاد العامري كل مرة القول إنهم "لو سألوني عن الكتاب المفضل لديك أقول إنه الكتاب الذي غيّر حياتي وهو مراد مراد.. لا شيء تخسره سوى حياتك"، وهو الذي تعرّفت به في مصادفة من خلال العامل الفلسطيني، وستخوض معه ومع عمّال آخرين مرتدية زياً رجالياً، مغامرة دخول "إسرائيل" بطريقة "غير قانونية" بحثاً عن لقمة العيش، إبان الانتفاضة الثانية.

وتُصر على أنها ما زالت تتعلّم، من المعايشة بذات القدر الذي تعلّمته من القراءة، وتدرك كل يوم ضرورة تعلّم الفسيفساء الشعبية وهي تعجن ذاتها وتتشكل، وفي بعض الأحيان في غفلة منّا.

عن العربي الجديد

سعاد العامري تروي سيرة ملتبسة للذات والجماعة

«دمشقي" رواية الحنين إلى الأرض الأولى ترجمت عن الإنجليزية

أنطوان أبو زيد

تقارب الكاتبة الفلسطينية سعاد العامري، في روايتها الأخيرة الصادرة حديثاً عن دار المتوسّط بعنوان "دمشقي" من منظور السيرة الذاتية التي تروي فيها جانباً من طفولتها وحنينها إلى دمشق القديمة، مدينة والدتها، هي الفلسطينية – السورية. ولئن كانت الرواية مترجمة عن أصلها الإنجليزي my damascus وبعهدة المترجم القدير عماد الأحمد، فإنها تنقل حرارة انتماء الراوية إلى الإنجليزية الجذور، والحنين إلى الأماكن الأولى حيث عاشت الراوية "سعاد" الجزء الغالب من طفولتها وفتوّتها، لما قبل احتلال إسرائيل قرى كثيرة في الجولان عام ١٩٦٧، واستحالة عودة الناس إلى حياة تواصلهم السالفة، على الخطّ الطبيعي الذي رسمته القرابات وصلات الأرحام والعلاقات العريقة بين القبائل والعشائر والعائلات على مدى القرون الغابرة، بين فلسطين وسوريا ولبنان، لا سيّما بين بلدة عرّابة، مسقط رأس الراوية، في فلسطين، وبين دمشق، مسقط رأس أمها سامية البارودي.

يتساءل القارئ العربي، أول الأمر، عن الداعي إلى اختيار الكاتبة الراوية، سعاد العامري حقبة من الزمن (١٩٢٠–١٩٦٢)، كانت لا تزال خارجة عن الصراع المباشر بين العرب والفلسطينيين وبين الإسرائيليين في فلسطين التاريخية، حتى عام ١٩٤٨، الذي شهد تقسيم فلسطين وقيام الدولة الإسرائيلية، ومن ثم حرب عام ١٩٦٧، حين دخل الإسرائيليون في احتلالهم إلى جنّين وعرّابة، وباتت قيد الاحتلال إلى يومنا هذا. وللإجابة نقول إنّ الكاتبة سعاد العامري، الإنجليزية اللغة والتعبير، والأكاديمية خريجة جامعة أدنبرة في اسكتلندا، معمارية ومحاضرة في الهندسة، كانت قد نشرت أول رواية لها بعنوان "شارون وحماتي" فترجمت روايتها إلى عشرين لغة، وأتبعتها بالعديد من الروايات، من مثل: "مراد مراد"، و"غولدا نامت هنا"، وغيرهما. بالتالي، شاءت أن تنتقل من الرواية الواقعية الدرامية والتهكّمية الهازئة في كتابها عن الحصار الإسرائيلي لمقرّ الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، وبرفقتها حماتها ذات الطباع الصعبة، إلى رواية السيرة التي تسلّط فيها الذات أنواراً على حقبة من حياتها، عزيزة على روحها، مستعينة بكل ما اكتسبته من تقنيات السرد، والوصف، وتوقيع الاقتباسات، وعنونة الأجزاء والفصول، وغيرها، في رواية السيرة التي نحن بصددها.

مجريات السيرة

إذاً، يتّضح من قراءة الكتاب ومن مجرياته أنّ الكاتبة أرادته سيرة ذاتية، بل سيرة ذاتية جزئية، ما دامت الكاتبة ترسم إطاراً زمنياً معلوماً لمجريات السيرة، كما أسلفنا، من عشرينيات القرن الماضي، إلى أوائل الستينيات من القرن نفسه، باعتبار ذلك الإطار الزمني الذي تتحرّك فيه الراوية باسمها الصريح، سعاد، وتتنقّل في مسرح مكاني، هي والشخوص الذين تؤرّخ أهمّ محطات حياتهم (الجدّة بسيمة من ناحية والدتها، والجدّ نعمان، والخالتان: ليلى وكريمة، وأمها سامية، وابن عمّها وسيم الكثير التجوال إلى حيفا، ونورما...)، هو مدينة دمشق وأحياؤها الأليفة، وعمارة آل البارودي الأميرية التي لطالما احتضنت، بغرفها وباحاتها الواسعة وجنائنها، الراوية وهي الصغيرة، وذات الدلال وكبَر الانتماء، من جهة الأب إلى عشيرة عبد الهادي كبار ملاّكي الأراضي، في جوار جنّين، من أعمال فلسطين. ولكنّ السيرة، وإن كانت تدوّن بعضاً من ذكريات عالقة في روح الراوية سعاد العامري، فإنّها تمطّ زمن السرد والسيرة، أربعين عاماً إلى الخلف، (١٩٢٠) أي حين ارتضت عائلة آل البارودي الدمشقية، أن تزوّج ابنتها سامية، وهي في صباها الأول، بأحد شبان بلدة عرّابة من آل عبد الهادي، من كبار ملاّكي الأراضي في فلسطين.

ثم تعود (الراوية) وتمسك بخيط السرد تماماً، عندما تروح تروي سيرة أمها وخالاتها الأربع اللواتي عايشتهنّ طوال فتوتها والشباب. ما هي حكاية رواية السيرة هذه؟ إنها بالأحرى حكاية بسيطة، تروي أحداثها المتسلسلة عبر التاريخ، من عام ١٩٢٠، حين تُزوّجت جدّتها بسيمة البارودي بشاب من آل عبد الهادي، من بلدة عرّابة، أعمال فلسطين بالقرب من جنّين، والبعيدة عن الشام مسقط رأسها حوالى مئة وخمسين كيلومتراً، ويتلاقى نمطان من التفكير والحياة، نمط مدينيّ قائم على العادات والتقاليد وأوّلية قرابات الأمّ مع نمط من العادات والتقاليد ريفي، تقوم فيه قرابات الأب المقام الأوّل، إلى جانب الكثير من المعتقدات حول المولود الذكَر الأول عند المرأة المتزوّجة ووجوب أن تلد الذَّكر قبل موافاة أمّها في الشام، وكان أن توفّي لها المولود البكر في اليوم الأول، فمنعت من زيارة أهلها ثلاثين عاماً إلى حين ولدت للعائلة ذكراً يرثُ الأراضي. وتتوالى الأحداث التي تروى بصيغة الراوي العليم، ما لم تكن الراوية معنيّة بها شخصياً، مصحوبة بالكثير من وصف الأعراس، وجهاز العروس، ورسم الحنّاء، والهدايا المقدّمة من الوافدين، والزيجات المحصورة، في حينه أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، بين أفراد الطبقة الغنية من تجّار دمشق وبين طبقة الإقطاع من جوار دمشق، وامتداداً إلى شمال فلسطين، وصولاً إلى عرّابة.

هندسة وأنتروبولوجيا

ويمكن القول إن الكاتبة سعاد العامري، قد أحسنت توظيف كل معارفها الأنتروبولوجية، والتراثية، وحتى الهندسية، في إغناء السرد السيري، لا سيما المتصل بحياة الجدّة وابنتها بسيمة، أي أم الراوية، والذي تستعيد فيه علاقة التزاوج بين دمشق وعرّابة، عبر الأجيال المتعاقبة، وإكسابه أبعاداً اجتماعية وثقافية وجمالية (مثل المقارنة بين مدينة دمشق وإسطنبول، ونابلس ودمشق)، وعمرانية، هي خلاصة حياة أجيال غابرة بأسرها، كان يحسن بالكاتبة أن تدوّنها قبل أن تتوارى آثارها إلى الأبد. وتلك هي نكهة الرواية التي شاءت كاتبتها، ابنة دمشق من جهة الأمّ، أن تودعها متن الكتاب، بالحفظ والصّون، وقلوب القرّاء بأمان الذكرى.

أما الجزء الثالث من السيرة (العائلية – الذاتية) فقد خصّته الراوية بسرد أهمّ التقاليد الثابتة والتحوّلات الدراماتيكية التي بدأت معالمها الأولى بالظهور منذ عام ١٩٤٦، وكان بعنوان "بيت جدّو نعمان"؛ ومن هذه التقاليد الثابتة اجتماع أفراد العائلة كلّهم، نهار الجمعة، مع كل ما يترتّب عن ذلك الاجتماع من عادات الجلوس، وفقاً للتراتبية الطبقية والاجتماعية بين أفراد العائلة نفسها، وما يصاحب الاجتماع من مآكل ومشارب وغيرها. وبعد أن سردت حكاية زواج فاطمة، إحدى الخادمات في قصر جدها نعمان، تروي موت جدّها أوائل الستينيات من القرن العشرين ("كنتُ في التاسعة من عمري عندما توفي جدّو نعمان. وأكثر الذكريات جمالاً ووضوحاً في ذهني هي ذكرى وفاته..." (ص١٨٥) ومن تلك الذكريات شربها الشمبانيا برفقة شقيقتها نانا وابنة خالتها نورما، وثمالتهما بينما يشاهدن عرض رقص الدراويش في حارة آل البارودي، من ضمن الفعاليات الكثيرة التي كانت تجرى في حينه لهذه المناسبة. وتعود الراوية بالذكرى إلى عام ١٩٥٨، حين يلقى القبض على والدها في عمّان بتهمة التآمر على الدولة، وهو القوميّ الهوى والقريب من اليسار، فلا تفهم الواقعة كثيراً، وهي في السابعة. وتنهي الجزء بفصل الحمّام ذي السبع زوام.

الجزء الرابع والأخير من السيرة العائلية تروي فيه الكاتبة، وبحميمية بيّنة، تطوّر علاقتها بنورما الطفلة التي تولّت خالتها تربيتها، فتنتقل بها الذكريات من طفولتهما سوية، وحادثة المسبح والنفاذ من الغرق، في بيروت، إلى المشهد المسرحي بعنوان "اللقيطة" الذي مثّلته نورما قلباً وقالباً، وسؤالها الأليم عن أمها البيولوجية، ثم تولّيها رعاية خالتيها ليلى وكريمة، وقد كانت ذات ثراء من زواجها وعملها في إحدى دول الخليج، إلى لقائهما الأخير في فيلّتها ببرمانا، وسؤالها الوحيد عن أمها، ولماذا هي من حيفا، وليست من القدس.

هي الرواية الثالثة لسعاد العامري، تروي فيها الكاتبة سيرة عائلية، تتموضع فيها الذات عبر الزمن، والمواجع والأفراح ومحمولات الفكر والمعتقد والموروث وقليل من الاعتداد بالمكانة الاجتماعية التي اندثرت إلى غير رجعة. أو يكون للأدب تلك الوظيفة بتخزين كل ذلك، وإن يكن بلغة غير العربية.

عن اندبندنت عربية

في عام ١٩٩١، أسّست المعماريّة والكاتبة الفلسطينيّة د. سعاد العامري، «مركز المعمار الشعبيّ - رواق»، الّذي أصبح منذ ذلك الحين، أحد أهمّ المراكز الفلسطينيّة الّتي تعمل في مجال الحفاظ على التراث المعماريّ، وترميم المباني التاريخيّة الفلسطينيّة، إضافةً إلى ترميم البيوت والمراكز للعديد من القرى الفلسطينيّة في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة. وفي عام ٢٠٠٧، كتبت العامري كتابها الأوّل الّذي حقّق شهرة عالميّة، «شارون وحماتي»، والّذي تُرْجِمَ إلى أكثر من عشرين لغة حول العالم. تبعت العامري كتابها الأوّل، بكتاب «مراد مراد» (٢٠٠٩)، و«غولدا نامت هنا» (٢٠١٣)، و«دمشقيّ» (٢٠١٩).

سعاد العامري: أكتب مثلما أتكلّم

أنـــس إبـــراهــيــم

نتكلّم مع العامري، في الحوار الّذي تُجريه فُسْحَة – ثقافيّة فلسطينيّة، عن نشأة مشروع «رواق» وتطوّره، وعن سياسات العمارة التقليديّة والنيوليبراليّة في فلسطين، وعن الكتابة الروائيّة وظهورها المتأخّر، والصدفة، المتوقّع منها وغير المتوقّع.

فُسْحَة: أشرت، في حوارات سابقة، إلى الدور المركزيّ الّذي أدّته الصدفة في حياتك وفي مساراتك المعماريّة، والروائيّة، وغيرها من الأحداث المركزيّة؛ كيف تفهمين الصدفة وتأثيرها في خياراتك؟

سعاد: منذ كنت في «الجامعة الأميركيّة» في بيروت، وقبل ذلك، والصدفة لها دور كبير في حياتي؛ فمثلًا، لم أتوقّع قطّ أن أكون كاتبة؛ ولذلك كانت صدفة كتاب «شارون وحماتي» (دار الآداب، ٢٠٠٧) مهمّة، وأتت في وقتها المناسب لتغيّر حياتي بشكل كبير. الصدفة، كما أفهمها، هي الاستعداد لأخذ المجازفة، لن تكون الصدفة صدفة، إن لم يكن الإنسان منفتحًا على التجريب والعيش، فحتّى تحدث الصدفة لا بدّ من وجود الجرأة، وحتّى تحدث المصادفات، لا بدّ من الانطلاق في العالم، وإلّا فلن يحدث شيء. ما أقصده بالصدفة أيضًا، عدم الخوف من تغيير الحياة، فعادة ما نُعَلَّم في سنٍّ صغيرة أنّنا نملك شيئًا واحدًا فقط، موهبةً واحدة أو مهارة واحدة، وعادة ما يُقال إنّ على الإنسان فعل كلّ شيء، أو على الأقلّ شيء مهمّ قبل الثلاثين، وإلّا فلن يتمكّن من فعل شيء بعد ذلك الوقت. في رأيي، الإنسان لديه غير شيء واحد، وكلّها أشياء يمكنها الظهور، ويمكن تجريبها في أوقات مختلفة، متأخّرة أو مبكّرة. أعتقد أنّ الصدف الّتي حدثت لي، والنجاحات الّتي حقّقتها، لها علاقة بشعوري بالانطلاق في الحياة، وبحبّ الاستطلاع للمكان وللإنسان، وأيضا بسبب استعدادي الدائم لتغيير رأيي. من الضروريّ أن يغيّر الإنسان رأيه بين الحين والآخر، وأن يتمكّن من ذلك يعني قدرته على تغيير مجرى حياته بين الحين والآخر. أتيت إلى فلسطين بالصدفة، ولكنّي بالأصل رُبِّيت لاجئة؛ فقد هاجر أهلي عام ١٩٤٨، ولكنّ أحدًا منهم لم يفكّر في العودة أو استصدار تصريح زيارة كما فعلت عام ١٩٨١، ومنذ ذلك الحين أنا هنا. ما أقوله هو ضرورة الانفتاح والجرأة على التجريب الّتي تخلق الصدف الّتي بإمكانها تغيير مجرى الحياة. المشكلة أنّ الناس عادة ما يعلقون في عمل لا يحبّونه، علاقات عاطفيّة لا يحبّونها؛ خوفا من التغيير؛ ولكن، يلزمنا القليل من الانطلاق في الحياة للتخلّص من القيود الّتي تُثْقِل وجودنا.

فُسْحَة: كيف ساهم عملك السابق بالعمارة التقليديّة، في التأسيس لمشروع «مركز المعمار الشعبيّ – رواق»؟

سعاد: في البداية، سأقول إنّني ورثت حبّي للطبيعة عن أمّي، ولكنْ ثمّة بَلَدان أدّيا دورًا كبيرًا في تنمية حبّي للعمارة التقليديّة أو الفلاحيّة، الأوّل كان لبنان، حيث درست في «الجامعة الأميركيّة» في بيروت، الهندسة المعماريّة، ودرّسني بروفيسور إيطالي نمساويّ كان لديه اهتمام كبير بالعمارة التقليديّة اللبنانيّة. في تلك المرحلة درسنا مساقا اسمه «العمارة التقليديّة في لبنان»، وفي جزء من دراستنا تجوّلنا في القرى اللبنانيّة، واطّلعنا على أنماط العمارة التقليديّة في القرى، وذلك أثّر بشكل كبير فيّ، من ناحية الربط بين الإنسان والمبنى والطبيعة، وكيف أصبحتُ أراهم مرتبطين ببعضهم بعضا بشكل عضويّ. كذلك كان لرحلتي إلى إيطاليا عام ١٩٨١ أثر مهمّ في إدراكي ضرورة الحفاظ على التراث المعماريّ المحلّيّ، مثلما كان الحال في إيطاليا، وتساءلت: ما الّذي يمنعنا، في بلادنا، من حماية التراث الثقافيّ المكانيّ، الّذي يشكّل جزءًا من ذاكرتنا الجمعيّة، وجزءًا مهمًّا وأساسيًّا منها، وحفظ ذلك التراث، على غرار ما يحدث في إيطاليا، وفي بلدان أخرى؟ كأنّ العاديّ هو عدم الاكتراث بالمكان التراثيّ، بينما المكان هو الذاكرة، وفي سياق المكان الفلسطينيّ، تصبح الذاكرة أكثر إلحاحًا. اعتدت سماع والدي وهو يروي لي كيف دمّرت إسرائيل المكان الفلسطينيّ، القرى والمدن والبيوت، وكنت أسأله دائمًا إن كانت فلسطين أجمل من لبنان، ويجيبني بأنّها أجمل من أيّ مكان آخر، فأشعر بالقهر عندما أسأله عن بيته، وإن كان قد دُمِّر، ويقول لي إنّه لا يعرف، وأتخيّل معنى الفقدان بالنسبة إلى أناس أحياء في منفاهم، ولا يعرفون إن كانت بيوتهم لا تزال قائمة أم لا، إن كانت حاراتهم قد دُمِّرت، أو مدارسهم، أو مشافيهم، أو مدنهم. لذلك؛ عندما فكّرت في كتابة أطروحة الدكتوراة، فكّرت في كتابة شيء عن العمارة التقليديّة في فلسطين، وكان من الصعب فعل ذلك بينما أنا في عمّان، وحينذاك طلبت من صديق لي استصدار تصريح لزيارة فلسطين، وزرتها في نهايات عام ١٩٨١، ولم أكن أعرف أحدًا في البلاد. وصلت القدس، ضعت فيها لبضعة أيّام، ومن ثمّ قرّرت زيارة كلّ المدن الفلسطينيّة، واشتغلت على تصوير مئات القرى الفلسطينيّة وتوثيقها منذ ذلك الوقت، وذلك المشروع كان بداية عملي في توثيق التراث المعماريّ الفلسطينيّ وحفظه، قبل تأسيس «مركز رواق» في عام ١٩٩١.

فُسْحَة: المحطّة الأولى في مشروع «رواق» كانت محطّة التوثيق، والأرشفة والكتابة عن المعمار الشعبيّ، وهي الكتابة الّتي لم تكن موجودة من قبل، في ما عدا مقالة واحدة فقط لتوفيق كنعان؛ ما الّذي أنجزه المركز خلال هذه المحطّة؟

سعاد: عندما بدأت بالعمل على أطروحة الدكتوراة، بدأت بالبحث عن الأدبيّات الّتي تناولت موضوع المعمار الشعبيّ في فلسطين، وفوجئت بأنّه لم يكن ثمّة أدبيّات متوفّرة، في ما عدا بعض الأدبيّات غير العربيّة عن مدينة القدس، ولكنّي لم أجد شيئًا عن العمارة الفلاحيّة والتقليديّة في ما عدا مقالة توفيق كنعان. وأعتقد أنّ لغياب الكتابات أسباب عديدة، من بينها أنّ أهلنا الّذين هُجِّروا عام ١٩٤٨ اختبروا صدمة نفسيّة عميقة جدًّا، إضافة إلى فقدهم كلّ شيء ملكوه في لحظة واحدة، وشعورهم لفترة طويلة من الزمن بأنهم على وشك العودة. ذلك الجيل اختبر الصدمة الكبرى، وفي الوقت نفسه كان عليهم العمل وفعل المستحيل لإطعام أولادهم وتعليمهم، فلم يكن ثمّة إمكانيّة ليشتغلوا في التأريخ، وتطلّب الأمر جيلًا كاملًا لنؤسّس أنفسنا نحن الفلسطينيّين. أمّا الجيل الثالث، وهو جيل الشباب اليوم، فهو الجيل الّذي بدأ بالتحرّر قليلًا من الثقل الّذي لازمَ الجيلين الأوّل والثاني إلى حدّ ما، وأصبح لديه القدرة على الكتابة التاريخيّة، إضافة إلى ممارسة الفنون وإنتاجها، والانشغال بالعمل الثقافيّ. وفي رأيي، أدّى «مركز رواق» دورًا مهمًّا – ولا يزال – في التأريخ للمعمار الشعبيّ الفلسطينيّ. في البداية، لم نكن نعرف ما لدينا أصلًا بفلسطين، عندما كنّا نخطّط للترميم والمحافظة على المباني التراثيّة. ولذلك السبب؛ بدأنا بمشروع «سجلّ المباني التاريخيّة»، الّذي قضينا فيه عشر سنوات، وتكلّف أكثر من مليون دولار؛ لنحدّد ٥٠ ألف مبنًى في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة تستحقّ الترميم. أشعر بالفخر اليوم لأقول إنّ «رواق» أصدر واحدًا وعشرين كتابًا في التراث المعماريّ الفلسطينيّ، في حين لم تتمكّن العديد من المراكز والجامعات من إصدار هذا العدد من الكتب، والأهمّ أنّها لكتّاب عرب. أظنّنا خلقنا نوعًا من نافذة في هذا العمل الأرشيفيّ، وإضافةً إلى توثيق المباني نفسها ونمط العمارة، عملنا على توثيق عناصر معماريّة أخرى كالبلاط الفلسطينيّ، وأنواع الأبواب، والحديد المستخدم؛ فأصبح لدينا ما يمكن وصفه بالمعجم لكلّ ما هو معمار تراثيّ فلسطينيّ.

فُسْحَة: كيف تحوّلت عمليّة الترميم إلى مشروع جمعيّ تشغيليّ، في المحطّة الثانية من عمل «رواق»؟

سعاد: كان هدفنا الأساسيّ هو حماية هذه المباني، ومع انتهاء العمل على السجلّ، حاولنا العمل مع البلديّات، واكتشفنا أنّ البلديّات ليست معنيّة كثيرًا في هكذا عمل؛ أي ترميم المباني التاريخيّة والتراثيّة في القرى. كذلك تطلّب الأمر وقتًا؛ حتّى أدرك الناس واكتشفوا أنّ لدينا تراثًا ومن المهمّ الحفاظ عليه، ولكنّنا اكتشفنا عندما ذهبنا إلى القرى لنحاضر بأهمّيّة التاريخ والهويّة وبيوتهم، أنّ الناس لم يكونوا مهتمّين كفاية بالاستماع إلى محاضرات، وجعلنا ذلك ندرك أهمّيّة وجود عنصر اقتصاديّ في المعادلة؛ بمعنى ضرورة استفادة القرى اقتصاديًّا من ترميم بيوتها وتخطيطاتها المعماريّة التراثيّة. وعندما فهمنا العنصر الاقتصاديّ فهمنا أهمّيّة استفادة القرية بشكل مباشر من هذه العمليّة. من هنا بدأ برنامج تشغيل أو خلق فرص العمل، وبدأنا تدريب المتعهّدين على كيفية الترميم؛ فالمعرفة كانت غائبة، والبلاط التقليديّ كان منقرضًا، فذهبنا إلى مصنع بلاط تقليديّ مغلق، وأقنعنا صاحبه بأن يعيد تشغيله بعد اتّفاقنا معه على أنّنا سنشتري كلّ إنتاجه. كذلك كان اتّفاقنا مع المتعهّدين على ضرورة تشغيل أهل القرية أنفسهم في مشاريع الترميم، وبدأنا بالتنسيق مع الجمعيّات الأهليّة بالقرى، ونتّفق معهم على الانتقال من مقرّاتهم المبنيّة من الباطون التقليديّ، إلى منازل أوسع رُمِّمَت دون الحاجة إلى دفع

أيّ شيء؛ فكانت الفكرة أن نتّفق مع مالك البيت على ترميم بيته، والتكفّل ماليًّا بكلّ شيء، على أن يمنحونا حقّ الاستعمال لعشر سنين أو خمس عشرة سنة، وبهذا الاتّفاق يستفيد الملّاك، والجمعيّات الأهليّة الّتي أصبح بإمكانها العمل في مساحة أوسع، وكذلك أهل البلد الّذين يشتغلون في هذه المشاريع. وهذا كلّه بدأ عام ٢٠٠٠، عندما بدأ شارون بمنع العمّال الفلسطينيّين من العمل في إسرائيل؛ وهو ما أدّى إلى نسب بطالة مرتفعة، وذلك كان كلمة السرّ في نجاح «رواق".

فُسْحَة: عمل «رواق» على الترميم والافتتاح لما يقارب ٧٧ مبنًى نسويًّا، أو مركزًا ثقافيًّا نسويًّا، ما الاعتبارات الجندريّة الّتي يُفَكَّر فيها عند التخطيط لهذه المشاريع؟

سعاد: تعرف تمامًا صعوبة التعامل مع موضوع النساء في مجتمعنا، ونحن فكّرنا بالتالي، إن كان ثمّة مهندسات في قرية ما في الخليل، أو نابلس، أو أيّ مدينة أخرى، فسنعطي الأولويّة لهؤلاء المهندسات في التدريب والتشغيل. أيضًا، من الصعب تشغيل المرأة في أعمال البناء الّتي تاريخيًّا هي أعمال ذكوريّة، فنلجأ في مثل هذه الحالة إلى تشغيل النساء في الأعمال الّتي يُتْقِنَّها كالبستَنة والتزيين، وغيرهما من الأشغال الملائمة، الّتي تحترم العادات والتقاليد في القرية أو البلدة. ونحن ندرك أيضًا ضرورة التعامل مع الأجسام الموجودة أصلًا من مؤسّسات ومراكز نسويّة أو لجان نسويّة، بدلًا من محاولة فرض شيء خارجيّ أو لجنة خارجيّة؛ ولذلك نعمد إلى التنسيق المباشر مع هذه المراكز، عند التخطيط لأيّ مشاريع ترميم في أيّ قرية.

فُسْحَة: يبدو أنّ مشروع «رواق»، في ترميم المباني التاريخيّة والبيت الريفيّ التقليديّ وتأهيلها، يسير في اتّجاه معاكس لنمط العمارة المهيمن في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة، الّذي تمثّله مشاريع معماريّة ضخمة مثل «روابي» والضواحي المنعزلة عن المدن، إضافةً إلى الأبراج السكنيّة المكتظّة. كيف تقرئين سياسات التوسّع السكنيّ النيوليبراليّ في المدينة الفلسطينيّة اليوم؟

سعاد: المشكلة تبدأ برأس المال، وعندما يكون رأس المال قادرًا على تقرير ما هو أفضل بالنسبة إلى المصلحة العامّة، فتصبح المصلحة العامّة هي مصلحة رأس المال الخاصّة. الافتراض الأساسيّ أنْ تعمل البلديّات والحكومات في خدمة المواطن، وأن توفّر له حيّزًا عامًّا يتنفّس من خلاله، أن توفّر شوارع عريضة بأرصفة نستطيع المشي عليها. الجميع يدفع الضرائب للبلديّات، ولكن مع غياب أيّ خدمة في المقابل. خمسون بالمئة من الميزانيّات العامّة تأتي من المواطنين، ومن حقّهم شارع ورصيف يمشون عليه، أنا أخاف المشي على أرصفة رام الله؛ لأنّي دائمًا ما أنظر إلى الأرض لكيلا أقع. من حقّ المواطنين أن يكون لديهم مساحات خضراء، ومن المؤسف أن يكون المستثمر هو صاحب القرار في كيفيّة عيش الناس؛ فهو لا يهمّه أن يرى الناس السماء، أو يكون لديهم القليل من ضوء الشمس، أو يلعب أطفالهم في الحديقة. منذ زمن طويل، ينصّ القانون على أنّ البناء يجب ألّا يتجاوز أربعة طوابق، ولكن فجأة تغيّر هذا النصّ القانونيّ أو لم يَعُد مهمًّا؛ لأنّ البلديّات لا يهمّها وجود تهوية ملائمة في الشقق السكنيّة المختنقة في البرج السكنيّ، وفي النهاية، تصبح السلطة والبلديّة في خدمة مَنْ يملكون المال، والقادرين على بناء أبراج سكنيّة سيسعدهم دفع مخالفة لا تؤثّر فيهم بشيء، ويصبحون هم في النهاية مَنْ يتحكّم في الشكل المعماريّ للمدينة.

فُسْحَة: من الممكن اعتبار عمل «رواق» من توثيق وأرشفة وإصدارات، نوعًا من أنواع المعرفة الأصلانيّة المعماريّة؛ فهل ثمّة خطط لتحويل هذي المعرفة واستيعابها أكاديميًّا؛ لتكون رائجة في دراسات العمارة والهندسة في فلسطين؟

سعاد: أرجو ذلك، حاولنا مع الجامعات إدخال مساق «العمارة التقليديّة»، ولكن عادةً ما يكون التعامل معه باستخفاف من قبَل الأساتذة، فَيُدَرَّس فصلًا ولا يُدَرَّس في الفصل التالي. أعتقد أنّ الناس ستقدّر عمل «رواق» وأهمّيّة التراث المعماريّ، وكم هو ملائم البيت القديم للسكن من ناحية الموادّ وانسجامه عضويًّا وبيئيًّا مع البيئة المحيطة! عملت أنا وخلدون بشارة، الّذي كان مدير «رواق» قبل فترة، مشروعًا اسمه «تلّ الصفا»، وهو مشروع سكنيّ، يتألّف من ٤٥ وحدة سكنيّة من الخارج تبدو من القرن التاسع عشر، ولكن من الداخل هي نمط القرن الحادي والعشرين. أردنا من المشروع أن نُري كيف يمكن العمارة التقليديّة أن تُلائم زمننا أيضًا. لست ضدّ العمارة الجديدة، فلكلّ زمن أسلوب معيّن، ولكنّي ضدّ نسيان كلّ شيء من تاريخنا، تراثنا، قدراتنا ومهاراتنا المهنيّة. في رأيي أنّ لدينا تراثًا ضخمًا يجب النظر إليه مصدرًا للإلهام، ومن هنا جاءت فكرة «تلّ الصفا»، فكانت قرية متكاملة تقريبًا. نحن بذلنا ما في وسعنا ليكون هذا النمط من العيش والسكن رائجًا، وما زلنا نبذل ما في وسعنا، ومع ذلك، فما دامت السيطرة هي لرأس المال الباحث عن الربح الشخصيّ لا الجمعيّ، فستظلّ الأبراج هي السائدة في بلادنا.

فُسْحَة: ثمّة اغتراب مباشر تُنْشئه الشقّة السكنيّة الّتي أصبحت سلعة، وتحوّلت إلى مصنع صغير لإعادة إنتاج العلاقات الجندريّة والاجتماعيّة في المجتمع، فأصبح البيت مكانًا للإقامة لا العيش، بينما يفرض تصميمه الداخليّ على المقيمين فيه أدوارهم وأدوارهنّ وطبيعة حياتهنّ وحياتهم؛ لأنّهم لم يشاركوا في تصميمه. ذلك ينطبق أيضًا على فكرة الحيّز العامّ، حيث الحيّز العامّ في المدينة عبارة عن شوارع بأرصفة ضيّقة ومجمّعات تجاريّة للتسوّق؛ فما الفرق بين الحيّز العامّ في قرية مثل «تلّ الصفا»، أو القرى الّتي تعيدون ترميمها، وبين الحيّز العامّ في المدينة الفلسطينيّة؟

سعاد: الإنسان هو المقياس، هذا ما نتعلّمه في العمارة، وأوّل ما ننظر إليه هو صورة ليوناردو دافنشي، تخبرنا بأنّ الإنسان مقياس كلّ شيء في الحياة. تشعرك القرى، بحيّزها العامّ والخاصّ، بأنّك جزء من هذا الحيّز، وبأنّك لست قزمًا بالنسبة إلى هذا الحيّز، بينما تشعر بالتقزّم في المدينة، وتشعر بأنّك غريب بالنسبة إلى البرج السكنيّ. ثمّة أيضًا علاقتنا بالطبيعة، فنحن مجتمع فلاحيّ والأرض دائمًا ما كانت تعني لنا الكثير، أمّا اليوم فالعائلة تسكن شقّة حارّة بُنيَت من الباطون، في الطابق السابع عشر، وتعيش نمط حياة، في رأيي، نحن لسنا مستعدّين له. إذا سألت طفلًا أين سيلعب في المدينة، فلن يعرف بماذا يجيبك، ولو سألت طفلًا من قرية دير غسّانة، لقال لك في الحارة أو في وسط القرية. أعتقد أنّ المكان الّذي لا نستطيع فيه المشي براحتنا، ولا يستطيع أطفالنا لعب كرة القدم فيه، هو مكان لا يصلح للعيش، وهذا ما أوضحه لنا وباء كورونا، الّذي أظهر لنا حاجتنا الماسّة إلى الحديقة، إلى الفُسْحَة الخارجيّة الّتي هي بمنزلة مُتَنَفَّس. الحديقة، كما أفهمها، هي حقّ من حقوق الإنسان، والمشكلة لدينا هي في انعدام حقوق الإنسان، وهذا عائد إلى السياسات البلديّة والحكوميّة الّتي تصادق على وجود هذه الأبراج السكنيّة، ولا توفّر متنفّسًا وحيّزًا عامًّا للمواطنين. أعتقد أنّ الناس ستبدأ بإدراك أهمّيّة العيش في القرية خلال عشر سنوات أو خمس عشرة من الآن، وأهمّيّة إيجاد متنفّس خارج المدينة.

فُسْحَة: في العودة إلى مفهوم الصدفة، أعود إلى كتابك «شارون وحماتي»، الّذي ظهر فجأة، وكنت قد قلت سابقًا إنّك لم تتوقّعي من قبل أن تكوني كاتبة؛ فكيف ظهر الكتاب؟ وكيف ظهرت سعاد العامري الكاتبة؟

سعاد: بداية، نحن نعيش في مجتمع يقيّدنا منذ الطفولة، تُنَظِّم لنا حيواتنا، وتربط الذكاء بتخصّصات محدّدة كالرياضيّات، أو الهندسة، أو الطبّ أو أيّ تخصّص من هذه التخصّصات. وعادة ما لا يُعْتَرَف بالمواهب الأخرى، كالموسيقى، والرسم، أو حبّ القراءة والكتابة.

كلّ هذا لا يعني شيئًا بالنسبة إلى كثيرين. ثمّة برمجة تحدث لنا ونحن أطفال، وفي هذه البرمجة يحدث القمع، ومنه الإسكات، فإذا كان ثمّة طفل – أو طفلة – في العائلة يتكلّم كثيرًا فعادةً ما يُسْكتونَه. لكنّ تلك موهبة أيضًا، لم يسبق لي أن فهمت الحكَي، كموهبة، والحكي من الحكواتيّ أو الحكواتيّة، وأنا كنت أحبّ الحكي، ولم أشعر بالقمع في عائلتي، بالعكس، شعرت بالتشجيع لأحكي قصصي الشخصيّة. لم أفهم الحكواتيّة كموهبة، لكنّها موهبة امتلكتها منذ كنت صغيرة، ولم أفكّر من قبل أنّني أريد أن أصبح كاتبة؛ لأنّني كنت أواجه صعوبة في القراءة أو ما يُسَمّى بالديسلكسيا (Dyslexia)، وكنت أعتقد أنّ الكاتب هو الّذي يمتلك لغة قويّة ويقرأ كثيرًا، ولكن لم يسبق لي أن ربطت بين الحكواتيّة، من الحكاية، والقصّة، وأنّ القصّة هي الرواية؛ فالمصادفة حدثت لدى اجتياح شارون للضفّة الغربيّة عام ٢٠٠٢، واضطررت حينها إلى إحضار حماتي للعيش معي، وبدأت بكتابة قصص اجتياح شارون وقصصي أنا وحماتي في منزلي. فجأة، وجدت نفسي كاتبة، وتُرْجِمَ كتابي إلى عشرين لغة، ولكنّها صُدَف عدّة؛ لأنّها مبنيّة أصلًا على الحكواتيّة الّتي لم أعرف وجودها داخلي حتّى تلك اللحظة. لم أعرف أنّ أساس الرواية هي الحكاية، وإن لم تملك حكاية فليس لديك رواية، حتّى لو كانت لغتك العربيّة قويّة، فليس لديك شيء لتقوله. الأمر الثاني هو اكتشافي لقدرة كلّ منّا على أن يكون كاتبًا، وأنّ الكاتب ليس الكائن الأسطوريّ الّذي ينزل عليه الوحي والإلهام. أنا أكتب مثلما أتكلّم، والكتابة تأتيني بسهولة، ولكن، مع العمل الشاقّ، والعمل الشاقّ له دور مهمّ في عمليّة الكتابة. على الإنسان أن يكون لحوحًا، فلا يمكن أيّ كاتبة أن تكون كاتبة ناجحة، أو كاتبًا ناجحًا دون العمل اليوميّ. القصّة ليست وحيًا، وعادة ما أجلس في الأيّام الثلاثة الأولى وأكتب خربشات بلا معنًى، ولكن في اليوم الرابع تبدأ الرواية بالظهور، وبعدها أبدأ بالكتابة لأيّام وليال بانتظام وبصبر. في رأيي، لا بدّ من الهوس الشخصيّ؛ الهوس الّذي يدفع إلى العمل اليوميّ، والتفكير المستمرّ بالرواية حتّى يتحقّق النجاح النهائيّ.

فُسْحَة: هل هو هوسك، إذن، الّذي دفعك إلى التسلّل برفقة العمّال الفلسطينيّين إلى الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة عام ١٩٤٨؛ لتتمكّني من كتابة كتاب «مراد مراد»؟

سعاد: قرّرت مرافقة العمّال الفلسطينيّين لأنّني فوجئت بجَهلي؛ فأنا أعتبر نفسي سياسيّة، أنتم تقابلونني كاتبة ومعماريّة، ولكنّي أعتبر أنّ لديّ تاريخًا سياسيًّا، وفوجئت بجَهلي عندما سمعت من مراد بالصعوبات الّتي يواجهونها في طريقهم إلى أشغالهم، وأحسست كأنّي أجنبيّة لا تعرف شيئًا عن مراد، ولا عن مئتين وخمسين ألف عامل فلسطينيّ يعيلون ما يقارب مليون فلسطينيّ، ولا عن ظروف عملهم. كان تحدّيًا بالنسبة إليّ، وقرّرت، وكما تعرف، في البداية أقفز في الماء، ومن ثمّ أسأل إن كنت أعرف السباحة أم لا، وقرّرت مرافقتهم والتسلّل برفقتهم إلى الداخل المحتلّ. دائمًا ما أقول إنّ «مراد مراد» هو أعزّ كتاب كتبته؛ لأنّني استفدت كثيرًا من الوقت الّذي قضيته برفقة مراد وبقيّة الشباب، وتعلّمت الكثير عن صعوبة حياة العمّال الفلسطينيّين. كذلك كان الحديث مع العمّال كاشفًا عن الكثير من الأشياء الّتي تجهلها كاتبة مثلي، ويجهلها المثقّفون في مدينة مثل رام الله، الّتي نتحدّث فيها مع الناس الّذين يشبهوننا في أشياء نعرفها أصلًا. ولكن، عندما تقضي ثماني عشرة ساعة مع العمّال، تبدأ بفهم الأمور بطريقة مختلفة. تبدأ بفهم العلاقة المركّبة بين العمّال وإسرائيل، والتناقضات الشعوريّة بين شعورهم بالحرّيّة بعيدًا عن قراهم، وبين شعورهم بالقمع والعنصريّة من المجتمع الإسرائيليّ. أعتقد أنّ شارون منع العمّال من دخول إسرائيل؛ لأنّهم كانوا الجسر الّذي يصل بين المجتمعين، وكان بإمكانهم بناء المزيد من الجسور وتحقيق السلام، أكثر من أيّ شخصيّة مثقّفة أخرى. ليس ثمّة تفلسف ولا مزاودات وطنيّة في كلامهم، على العكس منّا؛ فنحن لا نعطي رأينا الصادق في الكثير من الأشياء، منها المقاومة وأساليبها القديمة والجديدة، والسلطة الّتي تمنع المقاومة ولا تقدّم حلولًا بديلة. كلّ هذه الأسئلة نتعامل معها بحذر وخوف؛ لئلّا نُغْضِبَ أحدًا أو لا يُعْجِب كلامنا أحدًا، فيصبح لدينا قمع ذاتيّ داخليّ يجعلنا نَنتقي كلماتنا خلال حديثنا عن أيّ شيء. أمّا العامل فيتكلّم بلا رقابة ذاتيّة وبلا تفلسف؛ ولذلك أعتقد أنّ تجربتي مع العمّال من أغنى التجارب الّتي عشتها؛ لأنّها علّمتني عدم التفلسف على الآخرين الّذين لا أستطيع تمييز المسؤوليّات الملقاة على عاتقهم، أو حتّى رؤيتها.

فُسْحَة: تبدو رواية «دمشقيّ» كأنّها تأمّل في الماضي؛ فهي تحكي قصّة عائلة دمشقيّة فلسطينيّة عاشت في القرن التاسع عشر، بين دمشق وقرية عرّابة في فلسطين؛ فهل هي رواية سيرة ذاتيّة؟ وهل تقاطعت كبقيّة رواياتك مع أحداث بعينها؟

سعاد: لا تنسَ أنّ أمّي سوريّة، وقد وُلِدْتُ في دمشق، وكان الظرف في فلسطين هو ما دفعني إلى الكتابة عن فلسطين والحياة اليوميّة، ولكن عندما بدأت الحرب في سوريا عام ٢٠١١، شعرت بأنّ ثمّة شعورًا بالأمان اختفى؛ فدمشق دائمًا ما كانت برّ الأمان بالنسبة إليّ. بالنسبة إلى عائلة لاجئة في الأردنّ، خسرت كلّ شيء في فلسطين، والجزء الفلسطينيّ منها يندب ويبكي ما فقده، ويتذكّر بمرارة تاريخه. كانت دمشق هي البلد الجميل، الّذي رُبّيت فيه في بيت غنيّ نسبيًّا ولعائلة محبّة، وكانت هي مصدر الشعور بالأمان الّذي اختفى مع بداية حرب عام ٢٠١١. كذلك في تلك الفترة كنت أعيش لفترات بين إيطاليا ونيويورك، ورأيت كم كان الأوروبّيّون والغرب يستخفّون ويحتقرون اللاجئين السوريّين، وكأنّ هؤلاء اللاجئين لم يأتوا من تاريخ قديم، ومن ثقافة ومن موسيقى، من طعام ومن لباس وقماش عالميّ اسمه «دمشقيّ»، كلّ هذا امّحى، كلّه لم يَعُد له وجود، وأصبح اللاجئ السوريّ كائنًا غير مرغوب فيه، ولا أحد يريد رؤيته يصل إليه. فكانت الرواية ردّ اعتبار للّاجئ السوريّ، وفي نفس الوقت، ردّ اعتبار لبلد أعطاني الكثير، فهي نعم، سيرة ذاتيّة، ولكنّها أيضًا نِتاجُ الخسارة الّتي شعرت بها.

عن موقع فسحة

الفلسطينية سعاد العامري تحصد جائزة «نوابغ العرب» عن فئة العمارة والتصميم

ساهمت في صون التراث المعماري عبر مركز «رِواق» وتوثيق أكثر من 50 ألف مبنى تاريخي

حصدت المعمارية الفلسطينية الدكتورة سعاد العامري جائزة «نوابغ العرب ٢٠٢٥» عن فئة العمارة والتصميم، تقديراً لإسهاماتها الممتدة في صون التراث المعماري الفلسطيني وترميم المباني التاريخية وإعادة توظيفها بما يعزّز الهوية العمرانية، في تكريم يسلّط الضوء على دور العمارة بوصفها «ديواناً للتاريخ» وحافظةً للذاكرة.

وهنّأ الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، الدكتورة العامري على فوزها، مؤكداً أن المعمار تجسيد لهوية الشعوب، وأن الحفاظ على التراث العمراني واجب حضاري يعكس احترام الأمم لماضيها ومستقبلها.

وقال في منشور على حسابه في منصة «إكس»، إن سعاد العامري، مؤسسة مركز المعمار الشعبي الفلسطيني «رواق»، قدّمت إسهامات رائدة في الحفاظ على التراث المَعماري الفلسطيني عبر ترميم المباني التاريخية وإعادة توظيفها بما يخدم المجتمع ويعزز الهوية العمرانية.

وأشار محمد بن راشد إلى مشاركة سعاد العامري في مشروع توثيق معماري يُعد من الأكبر في فلسطين، أفضى إلى سجِل يضمٍ أكثر من ٥٠ ألف مبنى تاريخي، وإحياء ٥٠ مركزاً تاريخياً، مع إشراك الأهالي والحرفيين في مشاريع ترميم القرى باستخدام المواد التقليدية في البناء.

وأضاف: «نبارك للدكتورة سعاد العامري فوزها وعطاءها الممتد لعقود، حفظ الله فلسطين، وأعاد لمبانيها وقراها التاريخية الحياة التي تستحق، ولتراثها امتداداً يبقى ما بقيت الذاكرة العربية».

ويأتي هذا التكريم ضمن مشروع «نوابغ العرب» الاستراتيجي الذي أطلقه الشيخ محمد بن راشد لتسليط الضوء على العقول العربية وتجاربها الإنسانية الملهمة للشباب في ميادين متعددة، من بينها العمارة والتصميم.

وتأسست تجربة العامري المهنية على الجمع بين البحث الميداني والعمل الترميمي والتدريب، إذ أسست مركز «رواق» عام ١٩٩١، وكرّست جهداً متواصلاً لتوثيق العَمران في فلسطين وتدريب أجيال من الحرفيين، مع إصدار دراسات ومراجع تسهم في حماية المعارف المعمارية بالتدوين الذي يوازي في أهميته الترميم. كما ساهمت في تسجيل البيوت الفلسطينية وتوثيق تفاصيلها كاملة، من أنواع البلاط والحجر والنقوش، وصولاً إلى المساقط والخرائط المعمارية الدقيقة.

ومن أبرز المشاريع التي قادتها إحياء القلب التاريخي لمدينة بيرزيت، ومشروع إعادة تأهيل ٥٠ قرية فلسطينية الذي انطلق عام ٢٠٠٥ للحفاظ على الإرث التاريخي والتراث الثقافي للريف الفلسطيني. وعلى الصعيد الأكاديمي، حاضرت في قسم الهندسة المعمارية بجامعة بيرزيت بين عامي ١٩٨٢ و١٩٩٦، ودرست الهندسة المعمارية في الجامعة الأميركية في بيروت، ونالت الماجستير من جامعة «آن آربر» في ميشيغان، والدكتوراه من جامعة إدنبرة في اسكوتلندا.

وكان محمد القرقاوي، وزير شؤون مجلس الوزراء ورئيسٍ اللجنةٍ العليا لمبادرة «نوابغ العرب»، قد اجرى اتصالاً مرئياً بالدكتورة العامري أبلغها خلاله بفوزها، مشيداً بما حققته خلال أكثر من ثلاثة عقود في صون التراث المعماري العربي وتقديمه إلى الجمهور العالمي عبر المشاريع الإحيائية والبحثية.

وقال القرقاوي إن مبادرةُ «نوابغ العرب» التي أطلقها الشيخ محمد بن راشد تُعيد إحياء الشغف بالبناء والمعرفة، وتدفع نحو نقلة تنموية عربية نوعيةٍ عبر إبراز إنجازات المفكرين والمبتكرين والعلماء، مؤكداً أن نماذج ملهمة مثل الدكتورة سعاد العامري تشجّع الشباب على التمسك بالتراث وصناعة إنجازات جديدة، وتدعم عودة العقول العربية إلى بيئتها.

ما تبقى لنا» من يافا:
سعاد العامري و"بدلة إنكليزية وبقرة يهودية"

عـــادل الأسـطـة

بعد نشر مقالي «بلبل فلسطين في بيت جدي: النكبة والجنون وزياد خداش» (٢٠٢٢/١٠/١٦) أخذت أسأل عن صورة عمي للتأكد من أنه كان فيها بصحبة محمد عبد الوهاب أم لا. لم أعثر على الصورة، فقلت لم يتبق لنا من يافا شيء، فحتى بيت جدي في حي النزهة، كما أعلمني أبي الذي زاره بعد ١٩٦٧ مرارا، وكما أبلغني مواطن نابلسي استأجر غرفة جانبية منه، جرف وأقيمت على أنقاضه محطة محروقات، وتذكرت نهاية رواية سعاد العامري «بدلة إنكليزية وبقرة يهودية» المكتوبة في ٢٠٢٠ والصادرة ترجمتها العربية في ٢٠٢٢. (وأنا أراجع أرشيف كتاباتي لاحظت أنني كتبت في ملحق الأيام «اليوم الثامن» في ١٢ تموز ٢٠٠١ تحت عنوان «كوشان بيت جدي»).

تنتهي الرواية بزيارة سعاد لصبحي الذي صار في العام ٢٠١٨ في الـ ٨٨ من عمره، في غرفته المتواضعة في جبل المريخ في عمان، وتسأله عن البدلة وعن محبوبته شمس التي صارت في الـ ٨٥ وتزوجت من أخيه أمير الذي بقي في يافا، فيجيبها، بعد أن أخرج خرقة رمادية مخططة بالأحمر:

" هاد كل اللي بقيلي من فلسطين".

" وشو بالنسبة إلى شمس؟".

- "صحيح إني ما رجعت شفت شمس بحياتي، لكن هادا ما بيعني إني ما كنت أفكر فيها طول هاي السنين..... كل اللي بقدر أقوله إني سعيد إنها ضلت في العيلة... كل واحد ونصيبه في هالدنيا".

وقصة صبحي وبدلته، وكذلك قصته مع شمس، قصة. فمن هو؟ وما هي قصته التي بنيت عليها الرواية؟

على الغلاف نقرأ «رواية مقتبسة عن قصة حقيقية» وقد كتبت باللغة الإنجليزية وترجمتها الكاتبة مع الكاتبة هلا شروف إلى العربية، وأهدتها سعاد «إلى أبي، وإلى اللاجئين جميعهم الذين قضوا في الشتات منتظرين العودة إلى الوطن»، وبعد صفحة الإهداء أوردت الكاتبة الملاحظة الآتية:

«هذه الرواية مبنية على مقابلات شخصية، أجريتها سنة ٢٠١٨ مع صبحي (٨٨ عاما) المقيم الآن في عمان، وشمس (٨٥ عاما) المقيمة في يافا».

وتبدأ تقص قصة صبحي ابن الخامسة عشرة الذي عمل في كاراج مصطفى الميكانيكي ابتداء من تموز ١٩٤٧ وتنهي قصها بلقائها مع شمس في يافا في كانون الثاني ٢٠١٨، ويتركز القص على فترات زمنية محددة وتكون هناك فجوة زمنية طويلة جدا بين العامين المذكورين لا نعرف فيها الكثير عن حياة صبحي في المنفى وشمس في يافا، وتمتد هذه الفجوة الزمنية منذ ٥٠ القرن ٢٠ إلى العام ٢٠١٨، فلا نقرأ عن ستين عاما تقريبا من حياة كل منهما إلا أقل القليل، قياسا لما نقرؤه عن حياتهما في العام ١٩٤٧ وعام النكبة ١٩٤٨ والأعوام القليلة التي تليه.

صبحي يختار أن يكون ميكانيكيا في كاراج مصطفى، لا مزارعا كأبيه إسماعيل ولا صيادا كجده.

في موسم النبي روبين اليافاوي المشهور، يحب صبحي شمس ابنة خليل السقا المزارع التي تصغره بثلاثة أعوام، وهي من سلمة، ويتخذ قراره بالزواج منها، ولكن الأحداث تتسارع وتحدث النكبة وتتشتت العائلات الفلسطينية ولا يتزوجان، فهو يهاجر وهي تقودها الظروف إلى البقاء في يافا، فتتزوج من أخيه أمير الذي قدرت له الأحداث أن يظل في يافا.

ما هي قصة البدلة الإنكليزية والبقرة اليهودية؟

عندما كان صبحي ميكانيكيا في الكاراج انتدبه معلمه مصطفى ليذهب مع الخواجا العصامي ميخائيل إلى بيارته ليصلح له ماتور ضخ المياه، ويعده ميخائيل بأنه إن نجح في إصلاح المضخة أن يكرمه ببدلة إنكليزية يكون ثمنها ٨ جنيهات فلسطينية يوم كانت أجرة صبحي في اليوم ٣٠ قرشا، ويصلح صبحي المضخة فينقذ موسم البرتقال لميخائيل ويحصل على البدلة التي يلبسها متباهيا بها، مقررا أن تكون بدلة عرسه يوم يتزوج شمس، ويظل تفكيره منحصرا في البدلة ذات الصوف الإنجليزي الفاخر وفي محبوبته شمس، وينتهي حلمه بالإخفاق فلا يتحقق.

وأما قصة البقرة اليهودية التي اقترن دالها في العنوان بدال البدلة فقصتها قصة قررت مستقبل شمس وأخواتها. في خضم أحداث النكبة وما نجم عنها من تشرد وشتات وجوع يسرق بعض الفلسطينيين، ومنهم خليل السقا والد شمس، بقرة من مستوطنة ويذبحونها ويطعمون الناس الجياع، وتكون النتيجة اعتقال اليهود من ذبحها، وهكذا تجد شمس نفسها وأختيها بلا أب وبلا أم أيضا ليرعاهما الشيوعيان عبد المصري ورفقة اليهودية حتى خروج خليل من السجن وبحثه عن بناته ولقائه بهما وتزويج شمس من أمير شقيق صبحي، وتستقر شمس في يافا وتعمر وتعيش مع أحفادها.

من خلال الرواية التي تروى بأسلوب الحكاية المشوق نتعرف إلى يافا وحياة سكانها قبل العام ١٩٤٨، ويافا هي مدينة والد سعاد المربي محمد أديب العامري، ويبدو أن إلمامها بتفاصيل حياة المدينة إلماما يقترب من إلمام من عاش فيها يتكئ بالدرجة الأولى على أحاديث والدها وذكرياته في يافا التي أقام فيها وهجر منها وزارها بعد هزيمة ١٩٦٧، وعندما زار بيته لم تأذن له المرأة اليهودية بدخوله وأغلقت الباب في وجهه وهددته باستدعاء الشرطة إن ألح وكرر الطلب.

تأسرك سعاد بأسلوبها في القص وتزودك ببعد معرفي عن يافا وأهلها وموسم النبي روبين فيها، وهي بذلك تواصل مشروعها الكتابي الذي بدأ بكتابها «شارون وحماتي» و«مراد مراد» فـ«دمشقي» وإذا كانت الأخيرة عن دمشق مدينة أمها فإن «بدلة إنكليزية..» عن مدينة أبيها التي جاورتها مدينة تل أبيب، وما تزودنا به من كتابة عن المدينة الفلسطينية قبل ١٩٤٨ هو ما افتقدته الرواية الفلسطينية التي كتبها الرواد ونشروها قبل ١٩٤٨.

كانت يافا مدينة مزدهرة فيها المقاهي ودور السينما ولم يكن أهلها منغلقين، بل إن قسما منهم كان منفتحا على الجيران اليهود وهو ما قرأناه في قصة نجاتي صدقي «العابث» وما كان أبي يرويه لي.

المساحة محدودة والكتابة تطول ولعلني أقارب العلاقات الأسرية في الرواية في مقالات لاحقة. لعلني.

عن جريدة الايام

سعاد العامري.. وظفت المعمار والرواية لترسيخ هوية فلسطين

عـــلـــي ســـعـــادة

معمارية وكاتبة فلسطينية تعود أصول عائلتها إلى مدينة يافا، نشأت في عمان ودمشق وبيروت والقاهرة قبل العيش بشكل دائم في مدينة رام الله حيث تعمل أستاذة في العمارة بجامعة بيرزيت.

ولدت سعاد العامري عام ١٩٥١ في مدينة دمشق لأب فلسطيني تقلد عددا من المناصب بالأردن وأم سورية.

درست الهندسة المعمارية في الجامعة الأمريكية في بيروت، ثم في جامعة أدنبرة وجامعة ميتشيغان، حيث نالت درجة الدكتوراه. تزوجت من الدكتور سليم تماري كبير الباحثين في مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

أصبحت عضوا في مجلس مدينة بلفست بإيرلندا، وكانت عضوا في فريق المفاوضات في واشنطن بين عامي ١٩٩١و١٩٩٣ وشغلت بعدها منصب وكيل عام وزارة الثقافة الفلسطينية.

شغفت العامري بالموروث المعماري الثقافي الفلسطيني، فأسست في رام الله عام ١٩٩١ مركزا لإعادة ترميم واستغلال المباني الأثرية، وتوثيق وتسجيل وحماية آلاف المواقع والمباني في فلسطين، وهو مركز المعمار الشعبي "رواق" الذي حاز على جائزة المهندس المعماري الآغا خان عام ٢٠١٣، وجائزة التصميم كاري ستون عام ٢٠١٢، وجائزة الأمير كلاوس عام ٢٠١١، بالإضافة إلى جائزة قطان للتميز عام ٢٠٠٧.

ألفت عدة كتاب حول العمارة والبناء فكان من بين مؤلفاتها في هذا المجال: "البلاط التقليدي في فلسطين"، "عمارة قرى الكراسي"، "زلزال في بيسان" و"العمارة الفلاحية في فلسطين: الفضاء والقرابة والنوع الاجتماعي».

ورغم أن دخولها عالم الكتابة الروائية جاء بالصدفة فقد ترجمت أعمالها الروائية إلى ٢٠ لغة وتحديدا روايتها الأولى "شارون وحماتي"، ثم جاءت "مراد مراد لا شيء تخسره إلّا حياتك"، "جولدا نامت هنا" و"دمشقي».

ودخلت سعاد العامري عالم الكتابة بالصدفة البحتة حين اضطرت لاستضافة حماتها البالغة ٩٢ عاما لأكثر من أربعين يوما في منزلها لدى فرض حظر التجول في عهد حكومة أرييل شارون. تقول سعاد: "كانت القوات الإسرائيلية في الخارج وحماتي في الداخل وكلاهما كانا يقودانني إلى الجنون، فلم أجد ملاذا إلا الكتابة».

بدأت بإرسال الرسائل الإلكترونية المحملة بالشكاوى من الوضع الذي تعيشه إلى أصدقائها. حتى وجدت هذه الرسائل طريقها إلى ناشر عن طريق إحدى الصديقات، فرأى فيها بذرة تبشر بكاتبة، وهكذا جاءت روايتها الأولى "شارون وحماتي: مذكرات رام الله" عام ٢٠٠٤. وحازت عدة جوائز أدبية، لتجعل من مؤلفتها واحدة من أبرز الروائيات العربيات اللواتي يكتب عنهن بالإنكليزية اليوم.

تقول العامري إن أسلوبها الروائي "حكواتي"، وتصر دائما على القول "أنا حكواتيه أكثر من كوني كاتبة". حيث تعج كتبها بالتفاصيل الحية في المزج بين الأحداث الواقعية ومبالغاتها الأدبية التي تقع في المخيلة أو الانطباعات الشخصية للكاتبة.

تقول: "نحن في فلسطين نعيش كتلة من المشاعر المختلطة من غضب وسخط وحنين إلى الماضي، وسخرية من محاولات إسرائيل طمس ماضي الفلسطينيين في القدس الغربية، لذلك لجأت إلى نسيج واقعي بخيوط من التاريخ الرسمي والذكريات الفردية لشخصيات كتابي التي ترتدى جلباب السخرية والانفعال من زمن الجرح والقهر الذي لم يزل نازفا من النكبة والهزيمة، وحكايات تعود بالصور الحية لمنازل فلسطينية ما زلت أحفظ أسماء أهلها، متضمنة معالم الأمكنة الفلسطينية الضائعة التي يغلفها غموض».

أكثر ما يدهش العامري هو أن الشعب الفلسطيني لا يزال يروى حكاية اللجوء التي أصبحت جزءا من هويته، تقول: "كشعب، لم نكف عن رواية قصة طردنا الجماعي خارج فلسطين، لكن بطريقة ما يشعر الفرد الفلسطيني بالخجل من أن يروي قصته الشخصية حول طرده من منزله وغرفة جلوسه وغرفة نومه».

العامري تواصل الكتابة الروائية والمشاركة في ندوات ومحاضرات تتحدث فيها عن تجربتها ككاتبة وعن المعاناة الفلسطينية اليومية تحت الاحتلال، ممسكة بخيوط روايتها الجديدة، وأيضا بشغفها الأول، المعمار.

عن موقع عرب ٤٨

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

سعاد النابغة

إنعام كجه جي

فازت المهندسة المعمارية سعاد العامري بواحدة من جوائز «نوابغ العرب» التي تمنحها دبي. وصلني الخبر فور إعلانه، وأسعدني أن تفوز صديقتي الفلسطينية بهذا التكريم الباذخ في فرع العمارة. تذكرت يوم فازت العراقية زها حديد، ابنة مدينتي ومدرستي، بأرفع جائزة عالمية في ميدانها. راحت تصاميمها تطرِّز وجه الكرة الأرضية. وهزجنا لها: «ما يجيبها إلا نسوانها».
وأنا أعرف سعاد الروائية أكثر من اطلاعي، للأسف، على منجزها في حقل العمارة. أفهم في المفردات والخيالات، ولا أميل للرياضيات والمساطر والفراجيل. هي بالنسبة لي، قبل كل شيء، صاحبة الرواية المدهشة «شارون وحماتي» التي صدرت بالإنجليزية، ثم تُرجمت إلى العربية ولغات أخرى.

تعرفت على نابغة العرب الجميلة في مصادفة لا يمكن نسيانها. كنا ضمن المدعوين إلى قصرٍ وندسور، لتناول الشاي مع ملكة بريطانيا. وطبعاً فإن المرء لا يقابل إليزابيث الثانية كل يوم. كان ذلك في ربيع ٢٠١٠. أما المناسبة فكانت الاحتفال بالتعاون الجديد في ميدان النشر بين «مؤسسة قطر» في الدوحة و«دار بلومزبيري» في لندن. ومن بواكير ذلك التعاون نشر كتاب سعاد العامري «مراد مراد» والترجمة الإنجليزية لروايتي «الحفيدة الأميركية».

قضينا سوية أياماً لطيفة في العاصمة البريطانية. أقمنا في فندق تاريخي في حي سوهو، اعتادت «بلومزبيري» استضافة مؤلفيها فيه. تصادقنا وتساررنا وضحكنا كثيراً. ولأنها تقيم في رام الله فقد كان من المتعذر تكرار اللقاء. تصورت أنه الأول والأخير. كيف أعبر إلى زهرة المدائن؟ لكن «تقدِّرون وتسخر الأقدار». فقد حدث بعد سنوات أن تلقيت دعوة لحضور مؤتمر فلسطين للرواية العربية. وكانت فرصة لزيارة سعاد، والتعرف على قريباتها في بيت العائلة الأثري في بيرزيت؛ حيث كل شجرة وكل حجر يفوق دولة الاحتلال عمراً وصلابة.

أتخيل ضحكتها حين سأقول لها إنني سعيدة لكوني صديقة النابغة. فسعاد المولودة في يافا تتمتع بحسٍّ السخرية السوداء. صفة فطرية للفلسطينيين. موهبة يكتسبها الرجال والنساء، وحتى الأطفال، من تراكم القهر مع استمرار العناد. تحكي لقارئها عن بشاعة الاحتلال الذي منح كلبها بطاقة «يُسمح له بدخول القدس» بينما يُحرم أهل البلاد من ذلك الحق. لا أدري إن كانت تصاميمها الهندسية تعكس مزاجها، ولكن رواياتها تكشف عن روح قادرة على تحويل المحتل إلى مهرِّج والدموع ابتسامات.

الكتابة شغف وهواية. والعمارة شغف وخبرة. درست سعاد العامري الهندسة في الجامعة الأميركية في بيروت، ثم في جامعتي أدنبرة وميشيغان. عادت إلى فلسطين وأصبحت أستاذة للعمارة في جامعة بيرزيت. أسست مركز «رواق» لترميم المباني العتيقة واستغلالها كي لا يتبدد تراث وطنها. تولى المركز توثيق آلاف المواقع الأثرية في فلسطين وتسجيلها وحمايتها.

آخر مؤلفاتها كتاب بعنوان: «بدلة إنجليزية وبقرة يهودية». كتبته بالإنجليزية كعادتها، وعرفتُ أنه تُرجم للعربية. لم يصلني بعد؛ لكنني أمني النفس بسويعات من التمتع بكتابة ذكية. عينها تلتقط ما نسهو عنه في زحام أيامنا.

عن الشرق الاوسط